الفصل الخامس

الانفعالية الأخلاقية

الفصل الخامس

الانفعالية الأخلاقية

أولاً: من الحدسية إلى الانفعالية

يدور الموضوع بوجه عام حول تحولات فكرية أخلاقية فى فلسفة برتراند رسل القيمية، وهو التحول من النظرية الحدسية وتبنى النظرية الانفعالية(*) ثم الطبيعية الأخلاقية، بيد أن التحول من الحدسية الأخلاقية لم يكن ناتجًا عن فراغ خلقى، فالأخلاق السكونية التى كتبها «سانتيانا» ناقدًا فيها «رسل» كانت أولى الأسباب التى جعلت فيلسوفنا يهجر نظرية «مور» الحدسية، مع العلم أن رسل لم يكن مقتنعًا فى البداية بالنظرية النقدية لموضوعية الخير التى وجهها إليه «سانتيانا» فى انتقاداته، فكانت فكرة رسل أنه على الرغم من الدور الذى كان لانتقادات «سانتيانا»، إلا أنها كانت انتقادات ناقصة وغير مكتملة لتجعله يتخلى عن رؤيته الحدسية(1).

إن القول بأنَّ رسل اتجه بعد تخليه عن الحدسية المورية إلى النظرية الانفعالية أو العاطفية، كان مبنيًا على انتقادات «سانتيانا» له، يعد قولاً ناقصًا فى بعض الوجوه، فكما أشار «هارى

(*) تعنى كلمة «انفعال» Emotion استثارة وجدان الفرد وتهييج مشاعره، وهو أمر متعلق بحاجات الكائن الحى ودوافعه. كانفعال الخوف المرتبط بالرغبة فى تفادى كل ما يهدد الكائن الحى أو يضر به. وكانفعال السرور الذى يصحب كل ما يشبع للفرد دوافعه ويحقق له الحماية والبقاء والسلامة والقوة، ومثل انفعال الغضب الذى يصحب مواجهة الفرد لخصمه الذى يهدد بقاءه أو مصالحه.
وللانفعال علاوة على بطانته النفسية مظاهر فسيولوجية عضوية، كارتفاع ضغط الدم وزيادة ضربات القلب، وارتفاع نسبة السكر فى الدم.
انظر - فرج عبد القادر طه، وآخرون: موسوعة علم النفس والتحليل النفسى، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993م، ص128.

(1) Michael K. Potter: Bertrand Russell`s Ethics, Continuum, London, New York, 2005, p4.

روجا» Harry Ruja أن العامل الحاسم فى تحول رسل إلى النظرية الانفعالية كان رغبة منه فى أن يجعل نظريته تتضمن واقعًا عمليًا خصبًا، وممارسة أفضل. ومن جهة أخرى يمكن القول أن رسل قد تحول بكل سهولة ويسر إلى تبني النظرية الانفعالية فى الأخلاق، وذلك لأنه لم يكن مقتنعًا بشكل مطلق بالنظرية المورية فى الرغبة من أجل الرغبة، فعندما قرأ رسل الأخلاق السكونية لسانتيانا كان فرحًا مسرورًا فى أن يتخلى عن النفعية المثالية لمور، واتجه نحو نظرية الخير النسبى فى الرغبة the Relativity of good to desire؛ لذا كان رسل غير مهتم بالدفاع عن نفسه ضد هجوم سانتيانا، ولا ينسى رسل هنا أن نظرية مور الحدسية قد أدت دورًا كبيرًا فى فكره الفلسفى، حتى اتخذ لنظريته الأخلاقية منحًا جديدًا[1].

وعلى هذا الصدد جاءت النظرية الانفعالية فى أخلاقيات القرن العشرين، لتبرهن على وجود الرغبة الذاتية كأساس أول أو قاعدة راسخة فى كل فعل أخلاقى، فكانت النظرية الانفعالية عند رسل بمثابة حلقة الوصل بين كل من النظرية الحدسية والطبيعية الأخلاقية، وعليها يمكن اعتبار النظرية الانفعالية النتيجة الثانية للدراسات التحليلية اللغوية التى حاولت اكتشاف العلاقة بين اللغة(*) والتفكير، وذلك على اعتبار النظرية الحدسية هى النتيجة الأولى فى حقل الدراسات التحليلية فى الأخلاق.

وقد كان الأثر الإيجابى للنظرية الانفعالية متمثلاً بصفة خاصة فى الفلسفة الوضعية المنطقية، التى ترى أن العبارات الأخلاقية فى الواقع ما هى إلا تعبير عن العواطف والإحساسات الخاصة، وعليها آثرت فى المقاربات بين رسل فى موقفه الانفعالى، أن أعرض بشىء من الإيجاز لموقف الوضعية المنطقية عند أعلام فلاسفتها أمثال «آير» و«كارناب» و«ريشنباخ».

---

(1) Ibid: pp. 4, 5.

(*) إن الاهتمام بأمور اللغة ومشكلاتها قديم جدًا، حيث يرجع هذا الاهتمام إلى السوفسطائيين، وسقراط وأفلاطون وأرسطو فى الفلسفة اليونانية. أما فى الفلسفة الحديثة فقد وجد الاهتمام بأمر اللغة وألفاظها عند فرنسيس بيكون فى كتابه «الأورجانون الجديد، وذلك فى حديثه عن أوهام السوق، فكان يحذرنا بيكون من أخطاء استعمال اللغة فى العلم، لأن اللفظ الواحد قد يحمل أكثر من معنى، وقد يكون من بين المعانى ما هو غامض، ولذلك ينبغى أن نحدد ألفاظنا ومعانيها تحديدًا دقيقًا حتى لا نقع فى الخطأ.

انظر- محمد مهران، محمد مدين: مقدمة فى الفلسفة المعاصرة، مرجع سابق، ص140.

- ماهر عبد القادر: المنطق ومناهج البحث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م، ص221.

وقد ساهم تقدم العلوم والمنطق والرياضيات مساهمة إيجابية فى ظهور ذلك الاتجاه العاطفى فى أخلاق القرن العشرين، فالبديهية الأولى التى يقوم عليها هذا الاتجاه الأخلاقى كما حددها الدكتور: زكى نجيب محمود - فى خرافة الميتافيزيقا - «هو أن قيمة الشىء خيرًا كانت أو جمالاً- مجرد شعور ذاتى عند الإنسان نحو الشىء وليست هى بكائنة فيه، فأنا حين أنظر إلى الوردة - مثلاً- وأقول عنها أنها «جميلة» فالذى أراه هو بقعة من اللون ذات شكل معين، لها أبعاد معينة يمكن قياسها ويمكن رسمها على الورق، وكذلك «أرى» فى الوردة تركيبًا كيماويًا معينًا إذا حللتها، لكنى لن «أرى» فى الوردة عنصرًا اسمه «جمال»، و إذن فوصفى لها بهذه الصفة هو شىء أضفيه لها من عندى، و إن شئت دقة فقل هو وصف لشعورى إزاءها لا وصف لها هى، وعلى هذا لا يكون «الجمال» من بين ما أدركه من الوردة بحواسى، فالعبارة التى تحتوى على كلمة «جمال» هى عبارة فى الحقيقة تتحدث عما ليس يُحس، أى أنها عبارة ميتافيزيقية تخلو من المعنى[1]. وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن مرد الحكم القيمى إلى الذاتية الإنسانية وليس الموضوعية العلمية.

وعلى هذا الأساس الذى قدمه أحد أئمة الاتجاه الانفعالى فى مصر والوطن العربى، فإن ما ينطبق على القضايا الجمالية ينطبق أيضًا وبالضرورة على القضايا الأخلاقية من حيث كونهما عبارات قيمة تخضع تحت معاول فلسفة القيم أو الأكسيولوجيا، وقد نوه الدكتور: زكى نجيب محمود - إلى ذلك بقوله «أن ما يجوز قوله عن العبارات الأخلاقية يمكن أن يقال كذلك عن العبارات الجمالية، من حيث أن كلتيهما تشمل ألفاظًا دالة على « قيمة» - كائنة ما كانت- ومعظم مجهودنا موجه الآن إلى إثبات أن العبارة التى تتحدث عن «قيمة» شىء - «خيرًا» كانت أو «جمالاً» هى عبارة فارغة من المعنى»[2]. وعليها كانت فلسفة الأخلاق عند أئمة الاتجاه الانفعالى ما هى إلا تعبير عن حالة نفسية عند المتكلم، أو هى شعور ذاتى بالحب أو الكراهية نحو شىء ما.

ومن جهة أخرى فإننا نجانب الصواب إذا قلنا أن النظرية الانفعالية فى اعتمادها على الذات الإنسانية، وميولها و إحساساتها المتغيرة، تنأى عن منهج التحليل اللغوى الأخلاقى،

(1) زكى نجيب محمود: خرافة الميتافيزيقا، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1953م، ص 111.
(2) المرجع السابق: ص112.

ألا وهـو «الميتا أخـلاق»[*] Meta-Ethics فإذا كانت النزعة الحدسـية المعبر عنها فى عناصر النظرية الأخلاقية للفيلسـوف الإنجليزى برتراند رسـل تعتمد بطريقة كلية على ذلك المنهج التحليلى، فإن النظرية الانفعالية على الرغم من قيامها على الرغبة Desire إلا أنها تدخل فى باب الميتاأخلاق التصورية، وذلك لكون الحكم الخلقى فى هذه النظرية لا يمكن الحكم على صوابه أو خطـأه، فهو يقوم فى جانب منه عن النظريات المعرفية للعلم، وأن يعتمد بطريقة كلية على الأمور اللغوية التحليلية.

ولذلـك فـإن النظرية الانفعاليـة عند برتراند رسـل، والمعبر عنها بصفـة خاصة فى كتابه «الدين والعلم» قد نجحت إلى حد كبير فى التغلب على العديد من العراقيل التى تم مواجهتها من جانب الآخرين، وذلك من خلال الاسـتفادة من الآراء التصورية التى أمدتنا بها نظرياته فى الرغبـة والدافع، وذلك على الرغم من كون النظرية الانفعالية عند رسـل كانت على درجة أقل من الميتا أخلاق[1]. ولكن إن كانت نظرية رسل الانفعالية على درجة أقل بمنطق التصورات الأخلاقى، أو منهج النقد الخلقى، فإن رسـل له السـبق فى التصريح والقول بهذه النظرية، فإنه هنا يسـبق الكثير من فلاسـفة القرن العشرين، الذين يعدون الـرواد الأول للإنفعال اللغوى الأخلاقى، آمثال «آيـر» أو «ستيفنسون»[**].

(*) تشير كلمة الميتا أخلاق Meta- Ethics فى الحقل الفلسفى إلى منطق التصورات الأخلاقية، فهى دائمًا تعتمد اعتمادًا كليًا على منهج التحليل الذى يعد الأساس الأول الذى بنيت عليه كل من النظرية الحدسية ثم النظرية الانفعالية فى الأخلاق، فالميتا أخلاق تشير إلى معنى الأخلاق التحليلية Analytic Ethics التى تعتمد على منطق النقد الخلقى، وهذا المنهج النقدى هو ما يميز النظرية الأخلاقية التحليلية Ethics عن المشكلة الخلقية Moral التى تعالج موضوعات السلوك البشرى فى أمور الحياة المعيشة (وقد أشرت فى الفصل الثانى إلى مضمون الميتا أخلاق عند الحديث عن التمييز بين معنى «خلقى» moral ومعنى «أخلاقى» ethical .. انظر هامش ص94) ... المؤلف.

(1) Michael K. Potter: Bertrand Russell`s Ethics, OP. cit, p.1.

(**) هو تشارلز ليزلى ستيفنسون، فيلسوف أمريكا فى منتصف القرن العشرين الميلادى، والذى عُرف بكتاباته الرائعة فى مجال الميتا أخلاق، أى دراسة العلاقة بين اللغة الأخلاقية، والفكر، والواقع، والمعرفة. ويتم وضعه بالتحديد دائمًا وجنبًا إلى جانب مع كل من «ريتشارد» و«آيـر» فى تطوير النظرية الإنفعالية فى فلسفة الأخلاق، وأهم كتاباته كان: المعنى الإنفعالى للمصطلحات الأخلاقية، وأيضًا الأخلاق واللغة.
انظـــر: Stanford Encyclopedia of Philosophy

وخير دليل على ذلك إذا رجعنا إلى تاريخ نشر رسل لكتابه «الدين والعلم» الذى كان فى عام 1935م، والذى كان غرضه الأساسى ليس مناقشة طبيعة الأحكام الأخلاقية فقط، بل التقليل من أهمية الدين تحت ستار العلم، فى حين نشر «آير» كتابه فى «اللغة والصدق والمنطق» عام 1936م، أما «ستيفنسون» فجاء كتابه «المعنى الانفعالى للمصطلحات الأخلاقية» عام 1937، أى بعد رسل بعامين[1].

لذلك يمكن القول بحق، أن رسل له فضل السبق فى القول بالنظرية الانفعالية قبل كل من الوضعية المنطقية برمتها، و«ستيفنسون» وغيره من الفلاسفة اللاحقين. وهذه الرؤية تقف على النقيض من رؤية كل من: «جيمس راشيل» James Rachels، و«قاموس بلاك ويل فى الفلسفة الغربية»، حيث أغفل «راشيل» دور برتراند رسل فى تأسيس النظرية الانفعالية، والتى وصفها بأنها من أعظم النظريات الاخلاقية فى القرن العشرين فى اعتمادها على الذاتية البسيطة، فى حين أنه قد جانب الصواب عندما جعل « تشارلز ليزلى ستيفنسون» الرائد والمطور للنظرية الانفعالية فى الأخلاق[2]، أما «قاموس الفلسفة الغربية» فقد أرجع تأصيل النظرية الانفعالية فى الأخلاق إلى «بيركلى» Berkeley، أما إنتشارها فكان على يد الوضعية المنطقية وبخاصة «آير»، أما تطورها فكان من نصيب «ستيفنسون». فى حين أنه قد جانب الصواب أيضًا عندما أغفل برتراند رسل ودوره فى الإشادة بالنظرية الانفعالية، وفصله مجال القيمة عن مجال العلم[3].

كما أضاف القاموس أن كل من النظرية الأخلاقية، والجمالية، وكذلك فلسفة اللغة يطلق عليهم جميعًا مسمى النظرية الانفعالية فى الأخلاق، من حيث كونها عبارة عن تعبيرات تقيمية عن ذات المتحدث[4]. ولكن الحق الذى ينبغى أن يقال هو أن رسل مؤسس النظرية الانفعالية، وطورها كل من «آير» و«ستيفنسون» وفريق الوضعية المنطقية.

(1) Stanford Encyclopedia of Philosophy, At: http://plato.stanford.edu/entries/stevenson/ (21/4/2012)

(2) James Rachels: The Elements of Moral Philosophy The McGraw-Hill Companies, Inc, New York, Fourth Edition, 2003, p.36.

(3) Nicholas Bunnin, Jiyuan Yu: The Blackwell Dictionary of Western Philosophy, Blackwell Publishing Ltd, U.S.A, 2004, p.207.

(4) Ibid: p.207.

ولكن لم تستمر هذه النظرية مع رسل زمنًا بعيدًا، إذ سرعان ما تغير موقف الفيلسوف تجاه مشكلات الحياة المعيشة، فارتبطت النظرية القيمية عنده بالأطر السياسية لأحوال الوطن، ولا نجانب الصواب إذا قلنا أن رسل يقصد «وطنه» فحسب، بل بالأحرى- كانت الأمور السياسية لأحوال البشرية عامة، هى غايته ومقصده فى السعى نحو أخلاق واقعية، تقوم على أسس حقيقية من خلال مناهج أقرب ما تكون إلى الموضوعية العلمية، و إن كانت ليس هناك موضوعية أخلاقية ثابتة، فبعد ما يقرب من ثلاثين عامًا، وجدت رسل يغير من موقفه وهذا هو حاله فى فلسفة القيم، و إن كان أسلوب فلسفته أيضًا، فيكتب «المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة» و يتبنى فيه النظرية الطبيعية الأخلاقية كما كانت عند روادها الأمريكان من الفلاسفة، أمثال «ديوى» و«سانتيانا» و«بيرى» و«لويس».

وعلى أساس هذه التوطئة التى تدور حول الأسس الأصيلة لبذوغ النظرية الانفعالية، تكونت الإشكاليات الجوهرية، مثل:

1. إلى أى حد يعد برتراند رسل فيلسوفًا عاطفيًا يدين بالنظرية الانفعالية اللغوية فى فلسفة القيم؟ أعنى هل كان للإنفعال معنًى واضحًا فى فلسفته، أم كانت نظريته ساذجة بمعنى محاولة للهروب من بوتقة الحدسية المورية؟

2. إلى أى حد ظهر التناقض الواضح فى الجمع بين النظرية المعرفية للعلم والنظرية القيمية فى الأخلاق؟ وهل كانت إمكانية الجمع مستحيلة (مع العلم أن رسل فيلسوفًا معرفيًا أصيلاً)؟ وما الأسس التى بنى عليه رسل فصله بين العلم والأخلاق؟

3. ما هى طبيعة الرغبة فى الذاتية الانفعالية؟ و إلى أى حد تعذر الحكم بصواب وخطأ العبارات القيمية العاطفية؟ و إلى أى حد جاءت نظرية الرغبة مبنية على أسس تحليلية نقدية، أى منهجية التصورات الميتا أخلاقية؟

4. ثانيًا: ماهية النظرية الانفعالية.

ليس عجبًا أن يغير فيلسوف موقفه أو رؤيته تجاه مشكلات الحياة، فما فعله الفيلسوف الإنجليزى العظيم «برتراند رسل» من تغيير فى نظرياته الأخلاقية هو نتيجة حتمية لنقد الفيلسوف الأمريكى «جورج سانتيانا» لنظريته الحدسية فى كتابه «رياح المذهب»، وقد

صرح بذلك فيلسوفنا في الكثير من كتبه مثل «مدح الكسل» أو «صور من الذاكرة» أو في المقال الذى كتبه «برتراند رسل» عن سانتيانا، بعنوان «فلسفة سانتيانا» Santayana`s Philosophy ضمن منشورات «مكتبة الفلاسفة الأحياء»، التى أشرف على نشرها «بول آرثر شيليب» P. A. Schilpp. بل أن هناك من الفلاسفة من قام بنقد التصور العام لتحليل الخيرية الحدسى، سواءً كان عند «مور» أو أتباعه اللاحقين، أمثال «ستيفن بيبر».

إن ما سبق ذكره ما هو إلا تمهيد لتأكيد تلك التحولات الجذرية في فكر الفيلسوف محل الدراسة، كما يؤكد على حقيقة مهمة، وهى تغيير رسل رؤيته الحدسية الأخلاقية برمتها، وتبنى منهج الوضعية المنطقية في فلسفة اللغة[*] The Philosophy of Language، وهو مسايرتهم في القول «بالنظرية الانفعالية في الفكر الأخلاقى»، وإن كان رسل في وقت لاحق هاجم الوضعية المنطقية، وذلك لسوء استخدامها لمنهج التحليل، حيث تطرفت في التحليل وأرادت قَصْرِ الفلسفة على ممارسات تقنية له في مجالات معينة، وبالتالى أنكرت حقيقة المشكلة الانطولوجية، وجدوى البحث في «تصور العالم»، وذلك عندما قصرت الفلسفة على تحليل العبارات العلمية[1].

كما أن تأكيد «ويتز» على ما جاء على لسان «تشارلى دنبار برود» في القول بأن «رسل» فيلسوفًا هوائيًا Russell is a flighty Philosopher لهو خير دليل على قيام «رسل» بتغيير موقفه

(*) فلسفة اللغة هى مجموعة مترابطة من الدراسات يعكف عليها المناطقة والفلاسفة، تنشأ عما يقلقهم من أسئلة ومشكلات تتعلق باللغة، كما أن علماء اللغويات حين تطورت علومهم ذهبوا إلى الخوض فيها وبحث مسائل منطقية أو فلسفية تنشأ عن أبحاثهم اللغوية.
وتعد فلسفة اللغة بالنسبة لـ«جوتليب فريجه» وكذلك جميع فلاسفة التحليل اللاحقين، هى الأساس لكل الفلسفات الأخرى، حيث أنها الوحيدة القادرة من خلال تحليل اللغة، أن تقوم بتحليل أفكارنا. بينما «رسل» رفض أن تكون دراسة اللغة هى الأساس لكل الفلسفات الأخرى.
انظر- محمود فهمى زيدان: في فلسفة اللغة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2003م، ص5.
Look also - Ray Monk: Was Russell An Analytical Philosopher? In, The Rise of Analytic Philosophy, edited by, Hans- Johann Glock, Blackwell Publishers LTD, Oxford, 1997, pp.35,37.

(1) يمنى طريف الخولى: جدل المثالية والواقعية عند برتراند رسل، مقال منشور في مجلة عالم الفكر، العدد 1، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مجلد 30، يوليو وسبيتمبر، 2001م، ص11.

الفلسـفى كل بضعة سـنوات[1]. وقد عبر رسـل عن ذلك بقوله «لقد تغـيرت أرائى بالتوافق مع تغيرات العالم»[2]. وهو نفس المعنى الذى أشـار إليه فيلسـوف اللغـة الجارية البارز «جيلبرت رايل[*]» G.Ryle (1900 - 1976)، فى أن رسـل لم يؤسـس مدرسـة فلسفية معينة، ولم يقتنص أطر نسق فلسفى محدد، بل فقط ابتدع منهجًا للتفكير لم تعرفه الفلسفة قبل عام 1900م، ودأب على تطبيقه وتطوير النتائج وتنقيحها ومراجعتها، وهذا راجع إلى طبيعة المسـائل التى انشـغل بها، وأسلوبه فى تناولها. وهذا فى الوقت نفسه أحد الملامح الأساسية فى فكر رسل والجدير حقًا بالإعجاب[3].

إن التسـاؤلات التى طرحها برتراند رسـل فى حكمة الغرب، كانت بمثابة اللبنة الأساسـية الأولى فى بنـاء النظرية الانفعاليـة، أو كما يطلق عليها أحيانًا النظرية العاطفية، لأنها تبدأ من حياة الإنسـان المعيشـة وتنتهى بنا إلى داخل الذات الإنسانية، فرسـل يبدأ إشكالياته المنهجية فيقـول «وماذا نقول عن الإنسـان؟ أهو ذرة مـن الغبار تزحف بلا حـول ولا قوة على كوكب صغـير الشـأن، كما يراه الفلكيون؟ أم أن الإنسـان، كما يقول الكيميائيـون، حفنة من المواد الكيميائية ركبت بطريقة بارعة؟؟»[4].

إنه إلى جانب الأسـئلة السابقة، هناك الأسئلة الأخلاقية عن الخير والشر، فهل ثمة طريق صائـب وخير للحياة، وآخر باطـل، أم أن الطريقة التى نحيا بها محايدة بين الخير والشر؟؟ هل هناك شيئًا يمكننا أن نسميه حكمة، أم أن ما يبدو حكمة إنما هو جنون محض؟؟[5].

---

(1) M. Weitz: Analysis and the Unity of Russell`s Philosophy, op.cit, p.59.

(2) برتراند رسل: أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص122.

(*) فيلسوف إنجليزى، وأحد زعماء الفلسفة اللغوية، وهو الآن أستاذ كرسى «وينفليت» للفلسفة الميتافيزيقية فى جامعة أكسفورد. وقد كان فى بداية حياته شديد التأثر بـ«هوسرل»، ولكنه صب اهتمامه الأساسى فيما بعد على التحليل اللغوى الحديث، حيث يعتقد أنه فى حالات كثيرة يختلط الأمر علينا نتيجة الشكل اللغوى والنحوى للتعبير عن الأفكار، مما يؤدى - كما يقول - إلى ما يسمى بأخطاء المقولات.
انظـر - خلف الجـراد: معجم الفلاسفة المختصر، مرجع سابق، ص99.

(3) يمنى طريف الخولى: جدل المثالية والواقعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص ص 10-9.

(4) برتراند رسل: حكمة الغرب، الجزء الأول، ترجمة / فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2010م، ص20.

(5) المصدر السابق: نفس الصفحة.

هـذه كلها أسـئلة محيرة، ومن المحـال أن يبت فيها المرء بإجراء تجـارب فى معمل، كما أن أصحـاب التكويـن الذهنى المسـتقل لا يقبلون أن يرتـدوا إلى ما يقوله أولئـك الذين يوزعون النبوءات الشاملة يمينًا ويسارًا[1].

إن التساؤلات السـابقة والتى قدمها الفيلسوف محل الدراسة نفسه، هى تساؤلات حقيقية ومهمة فى الحقل الأخلاقى، لذا فهى تحتاج إلى دراسات منفصلة، وذلك لتشعب الآراء الفلسفية وانقسـامها إلى اتجاهـات مختلفـة، ورواد النظريـة الانفعالية البـارزون فى هـذا الصدد، هم «هير[*]» و«وستيفنسـون»، وفريق الوضعية المنطقية برمته، ومشـكلتهم الرئيسية فى التمييز بين العلم ونظرية القيمة، إلى جانب تأثر رسل بهذه الاتجاهات والأخذ منها، والطعن فى بعضها- كما أشرت فى السطور السابقة- وأعنى بالطعن مهاجمته للوضعية المنطقية فى بعض من مواقفها، فعـلى الرغـم من تعاطفه مع الوضعيـة المنطقية إلا أنه لم يكن من أعضائهـا، بل لم يكن يتفق معهـم على أهم مبدأ من مبادئهم المميزة ألا وهو مبـدأ التحقق، وعلى ذلك فقد تأثرت الوضعية المنطقية بأفكاره تأثرًا كبيرا[2].

ومـن خلال هذه الـرؤى المتأرجحة بين التأثـير والتأثر، كانت الإجابات التى سـيقدمها الباحث فى بحثه محدودةَ العمق والشمول واليقين، لكونها تحتاج إلى عشرات الدراسات فى هذا المجال الدقيق.

تسـمى النظرية الانفعالية فى الأخلاق بالنظرية العاطفيـة، وذلك لأن ما يدفع إلى الحكم على شـخص ما أخلاقيًا هو أن يثير أداؤه أو سـلوكه مشاعر بعض الأشـخاص، ويدفعهم نحو التحول إلى الموافقة أو الرفض؛ أى أن سلوكه يثير تلك المشاعر التى تعدل من مواقف الآخرين

(1) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(*) هو ريتشارد ميرفن هير R.M. Hare فيلسوف إنجليزى معاصر، ولد عام 1919م وكان زميلاً بكلية باليول فى جامعة أكسفورد، وقد عرف «هير» بأنه فيلسوفًا أخلاقيًا، حيث لقى كتابه «لغة الأخلاق» عام 1952م اهتمامًا شديدًا جدًا فى الأوساط الفلسفية. يرى «هير» أن المهمة الأولى للفيلسوف الأخلاقى هى توضيح طبيعة الأحكام والحدود الأخلاقية، لأن الأحكام الأخلاقية تختلف عن الجمل الوصفية التى تقال عن العالم لا من حيث مادتها، ولكن من حيث أنها أقرب إلى الأوامر منها إلى الجمل الوصفية.
انظـر - الموسوعة الفلسفية المختصرة: مرجع سابق، ص 525.

(2) محمد مهران رشوان: فلسفة برتراند رسل، مرجع سابق، ص29.

فى اتجاه الموافقة (أو الإقرار) أو عكسها. فإذا كانت هذه المشاعر تُعلِّمنا (تخبرنا) مثلاً عن السلوك المحتمل للشخص أو عن سلوكه فى الماضى، فإن صحة أو زيف هذا العنصر الوصفى ليس له أهمية فى الحكم على وضعه الأخلاقى. ومثل هذه النظريات قليلة، هذا إن وجدت، وقد ركزت على القضايا الواقعية، أو على استكشاف الظاهرة الأخلاقية[1].

فى بداية التحليل الأخلاقى للنظرية الانفعالية التى تبناها رسل، يمكن القول - توافقًا - مع كل من «بول إدوارد» و«راميندرا» Ramendra أن الموقف الأخير later position الذى تبناه رسل فى تطوره الأخلاقى، قد عرض له بشكل مختصر عام 1921م، وذلك عند إعادة طبعه لكتابه «عبادة رجل حر» a Free man`s Worship، كما قام فيلسوفنا بتوضيح بعض التفصيلات الجزئية فى «ماذا اعتقد؟» What I Belive؟ عام 1925م. وأيضًا فى «مجمل الفلسفة» عام 1927م، بينما حصلت نظريته الانفعالية على مكوناتها الكاملة فى كتابه «الدين والعلم» Religion and Science وكان ذلك عام 1935م، وكذلك فى «القوة» Power و«الرد على نقادى» Replay to my Critics ثم أخيرًا فى «المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة» عام 1955م[2].

وأكد «راميندرا» على قول «بول إدوارد» فرأى الأول أن الموقف الأخلاقى المسمى بالنظرية الانفعالية The Emotive Theory والذى تبناه رسل فى تطور فكره الفلسفى، هو ذلك الموقف الذى عرض له فى كتابه «الدين والعلم» عام 1935م، أى قبل نشر ألفريد جولس آير كتابه «اللغة والصدق والمنطق» Language, Truth and Logic بعام واحد، وهو ذلك الكتاب الذى عرض فيه «آير» أيضًا لنظريته الانفعالية فى الأخلاق[3].

فى مجمل الفلسفة يحاول رسل تحليل نظريته الانفعالية فيقول «إنَّ النظرية الخاصة بالانفعالات قد تغيرت عندما تم الكشف عن الدور الذى تؤديه الغدد الصماء the ductless glands فى هذا الأمر، فالشرط الضرورى لحدوث العاطفة هو ما تفرزه الغدد فى الدم، حتى

(1) بيتر إدواردز: مستقبل الأخلاق، مرجع سابق، ص90.

(2) Paul Edwards: Russell, Bertrand Arthur William, Op.cit, p.252.

(3) Dr. Ramendra: The Ethical Philosophy of Bertrand Russell, at. http://bihar.humanists.net/ethicsrussell.htm (16/4/2010)

أنه يقال أن التغيرات الفسيولوجية الجوهرية the essential physiological التى تنتج إفرازات الغدد الصماء هى نفسها الانفعالات[1].

وبناءً على ما سبق يحاول رسل توضيح التنوع والاختلاف فى أحكام الضمير الباطنية، فيرى أن الله تعالى قد زرع فى قلب كل إنسان التمييز بين الصواب والخطأ، فإذا أردنا تحاشى الوقوع فى الخطيئة كما يقول رسل، فما علينا سوى الاستماع لأصواتنا الداخلية أى إلى أصوات ضمائرنا، وعلى أية حال فهناك عقبتان تقفان فى وجه هذه النظرية، أولاهما: أن الضمير يقول أشياءً مختلفة لمختلف الناس، وثانيتهما: أن دراسة اللاوعى أعطتنا مفتاحًا لفهم الدوافع الدنيوية وراء ما تشعر به ضمائرنا[2].

وهنا يعطينا رسل الأمثلة المختلفة لتوضيح الاختلافات فى أوامر الضمير ونواهيه، فيرى أن ضمير البعض يدين نهب الفقراء للأغنياء، مثلما يدعو إلى ذلك الشيوعيون، فى حين نرى آخرين يدينون استغلال الأغنياء للفقراء على نحو ما يفعل الرأسماليون. والضمير قد يأمر إنسانًا بضرورة الذود عن بلاده إذا تعرضت للغزو فى حين أن نفس الضمير يخبر إنسانًا آخر بأن كل اشتراك فى الحرب ينطوى على الشر، وفى خلال الحرب العالمية الأولى وجد الحكام الذين لم يتوافروا على دراسة الأخلاق باستثناء عدد قليل منهم، أن الضميرَ شيءٌ محيرٌ للغاية، الأمر الذى دعاهم إلى اتخاذ قرارات غريبة مثل القول بأنه بإمكان الإنسان الامتناع عن القتال إذا كان ضميره مقتنعًا بذلك[3].

يحاول رسل تفسير مدى التنوع فى أوامر الضمير السابقة ونواهيه، فيرى أن التنوع يصبح شيئًا متوقعًا حين نفهم أسبابه، ففى مطلع حياتنا نرى أننا نرضى عن صنوف معينة من الأفعال، ونسخط على صنوف أخرى منها، وعن طريق تداعى الأفكار المعتادة تصبح اللذة والألم مرتبطين بالتدريج بهذه الأفعال ولا يرتبطان بمجرد الرضا أوالسخط الناتجين عن هذه الأفعال. وقد ننسى بمرور الوقت كل شيء يتصل بما مارسناه فى حياتنا الباكرة من تدريبات أخلاقية.

(1) Bertrand Russell: An Outline of Philosophy, op. cit, p.226.

(2) برتراند رسل: الدين والعلم، ترجمة: رمسيس عوض، دار الهلال للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،1997م، ص225.

(3) المصدر السابق:نفس الصفحة.

ورغم ذلك فسوف نستمر فى الشعور بالألم وعدم الارتياح بصدد بعض الأنواع المعينة من التصرفات، فى حين أن بعض الأنواع الأخرى يحيط بها وهج الفضيلة[1].

أما الإنسان المستبطن لنفسه (عند الفيلسوف محور الدراسة) فيرى أن هذه المشاعر غامضة نظرًا لأنه لم يعد يتذكر الظروف التى نشأت هذه المشاعر فى ظلها، ولهذا فإنه من الطبيعى أن ننسب هذه المشاعر إلى صوت الله المحفور فى قلوبنا. ولكنَّ الضمير فى واقع الأمر نتاج التربية والتعليم، ويمكن تشكيله عند السواد الأعظم من الناس بحيث يشعر بالرضا أو السخط كما يرى رجال التربية والتعليم. بينما يكون من الصواب أن نرغب فى تحرير علم الأخلاق من التقيد بقواعد الأخلاق الخارجية، فإننا - كما يقول رسل- نكاد ألا نستطيع تحقيق ذلك عن طريق التمسك بفكرة الضمير[2].

إذا كان رسل يرى قصور الضمير البشرى فى التمييز بين الصواب والخطأ، أو يراه متقيدًا بقواعد الأخلاق الخارجية، مثلما وضح رسل بنفسه فى بداية العلم والأخلاق من كتابه «الدين والعلم»، إلا أنه وجد الحل المناسب لمشكلته الأخلاقية، فرأى أن الانفعالات هى التى تضفى على الحياة الدنيوية متعتها interesting It`s، وتجعلنا نشعر بأهميتها important It`s، ومن خلال هذه الرؤية الفلسفية كما يقول فيلسوفنا فإن الانفعالات تعد أهم عناصر الحياة البشرية على الإطلاق[3].

ولكن الظاهر فلسفيًا فيما يراه رسل، أن هذه الانفعالات ذاتها هى العائق الذى يمنع ويحول دون فهمنا للعالم فهمًا موضوعيًا دقيقًا غير متأثر بالأهواء الذاتية. فالانفعالات تجعلنا ننظر إلى العالم الخارجى فى مرآة من الأهواء والمشاعر والميول الذاتية، فنرى العالم مشرقًا bright حينًا، وفى الحين الآخر نراه قاتمًاdim، وذلك حسب ما يكون عليه وضع المرآة الخاصة بأهوائنا. ولو استثنينا من الانفعالات انفعالاً واحدًا، ألا وهو حب الاستطلاع، لقلنا أن الانفعالات جميعها تعوق hindrance الحياة العقلية، وذلك على الرغم من أن الدفعة القوية لقيامنا بالتفكير الناجح متصلة بخضوع الباحث لانفعالاته إلى حد كبير[4].

(1) المصدر السابق: 226.

(2) المصدر السابق: ص227.

(3) Bertrand Russell: An Outline of Philosophy, op. cit, p.228.

(4) Ibid: p.228.

وهنا يتفق «رسل» مع الفيلسوف الفينومينولوجى «ماكس شلر» حيث رأى الأخير أن المشاعر تؤدى دورًا مهمًا بالنسبة لخبرة القيم، وهذه المشاعر مشاعر قصدية موجهة نحو هدف وغاية، وهى تتجه إلى الأشياء لتفرغ نفسها فيها، ولا تنتج عن هذه الأشياء بأى حال من الأحوال، وهذا التوجه القصدى ليس عشوائيًا أو تلقائيًا، و إنما هو رد فعل أو تفسير للشيء المعطى لنا ككائن، ولنفس الموقف الذى تتجه فيه مشاعرنا تجاه الكائن باعتباره كائنًا ذا قيمة[1].

و يؤكد رسل على أهمية الانفعالات فى رده على أحد نقاده، فيقول فيلسوفنا متمسكًا بما خطه فى مجمل فلسفته، «عندما قام أحد النقاد بتوبيخى؛ لأنى أقول أن العواطف الشريرة فقط هى التى تمنع تحقيق عالم أفضل، واستطرد مزهوًا ليسأل «هل كل العواطف الإنسانية هى بالضرورة شر؟؟» ففى الكتاب نفسه الذى أدى بـ «ناقدى» إلى هذا الاعتراض، أقول أن ما يحتاجه العالم هو الحب المسيحى، أو الرحمة، فهذه بالتأكيد إحدى العواطف، وقولى أن هذا ما يحتاجه العالم لا أقترح العقل كقوة دافعة، ولكن لا استطيع إلا افتراض هذه العاطفة، لأنها ليست قاسية ولا مدمرة»[2].

من خلال ما سبق ذكره عن الفيلسوف محل الدراسة يتضح أن المشاعر والعواطف الإنسانية، هى صاحبة القول الفصل فى النظرية الأخلاقية، فالتمييز بين الخير والسيء، أو الصواب والخطأ يعتمد بطريقة كلية على فن استثارة العواطف والمشاعر الإنسانية، وليس على الحجج العلمية والدلائل العقلانية، وهنا نجد أنفسنا نعود إلى جذور النظرية فنجدها عند هيوم فيلسوف المشاركة الوجدانية، كما أشرت سابقًا، فقد عنى هيوم بدراسة العواطف فى الكتاب الثانى من «رسالة فى الطبيعة البشرية» وعمد إلى دراستها دراسة تحليلية تفصيلية يعرض فيها لأصنافها، وما يجرى بينها من علاقات[3].

لقد رأى هيوم أن العقل وحده لا يمكنه بحال أن يؤثر فى الأفعال، وأنه عبد للعواطف، ومن ثم لا يمكنه أن يدعى لنفسه أية مكانة غير أن يكون خادمًا لهذه العواطف ومطيعًا لها،

(1) المرجع السابق: ص317.

(2) برتراند رسل: أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص137.

(3) محمد فتحى الشنيطى: فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى، 2010م، ص170.

وأنـه إذا كان كذلك فـلا جدوى من القول بأن الأخلاق يمكن اكتشـافها بالإسـتدلال العقلى وحده[1]. كما سـلب «هيـوم» من العقل قدرته فى التمييز بين الصـواب والخطأ، وبين الفضيلة والرذيلـة vice، فليـس للعقل مكانة على الإطـلاق، فوظيفته الوحيدة المنـوط بها، هى وظيفة فنيـة technical، بمعنى مسـاعدتنا فى إنجـاز الأهداف goals المرجوة من خـلال عواطفنا our passions، فليس للعقل مكان فى عملية تقييم evaluation الأهداف[2].

ولقد حاول رسـل تبيان مفهوم الخـير فى نظريته الانفعالية، فوجد أن اختلاف الفلاسـفة باختلاف اتجاهاتهم كوّن مفاهيمًا وتصوراتٍ مختلفة عن الخير. فالبعض يعتقد أن الخير يتلخص فى معرفة الله ومحبته، والبعض الآخر يرى أنه يتلخص فى الحب الكونى الشامل، ويؤمن آخرون بأن الخير يكمن فى الاستمتاع بالجمال، فى حين يؤمن فريق آخر بأنه يكمن فى اللذة[3].

ولكـن عندما نحاول أن نتحرى وجه الدقة والتحديد بشـأن مـا نعنيه حين نذكر أن هذا الـشيء، أو ذاك هو «الخير»، فإننا نجد أنفسـنا فى مواجهة صعوبـات كبيرة للغاية، فقد أثارت عقيـدة «بنتام» المؤمنة بأن «الخير» هو اللذة اعتراضًا يتسـم بالغضب العاصف، حتى قيل عن هذه الفلسـفة أنها فلسـفة خنزير. فلم يتمكن «بنتام» أو معارضوه من التقدم بمحاجاة فاصلة فى هذا الشأن[4].

أما فى القضايا العلمية فيرى رسل أن الجانبين المتنازعين يسوقان الأدلة والبراهين على سلامة وجهـة نظرهما، وفى النهاية يتضح أن أحد الجانبين يتمتع بمصداقية أكبر من الآخر[5]. أو تبقى القضية غير محسـومة إذا لم يتمكن الجانبان من أن يسوقا الدليل على صحة هذا أو ذاك، ولكننا لا نسـتطيع إقامة الدليل أو ننقضه فيما يتعلق بصحة القول، بأن هذا أو ذاك هو الخير النهائى، إذ أن كل متنازع يسـتطيع فقط أن يحتكم إلى مشاعره الخاصة، ويلجأ إلى استخدام تلك الحيل البلاغية القادرة على إثارة مشاعر الآخرين[6].

---

(1) محمد مدين: نظرية القيمة عند ديفيد هيوم، مرجع سابق، ص5.

(2) Anthony Kenny: The Rise of Modern Philosophy, op. cit, P.261.

(3) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص228.

(4) المصدر السابق: ص229.

(5) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(6) المصدر السابق: ص230.

وهنا يلاحظ الباحث أن برتراند رسل يفصل بين نظريتين فى فلسفته، وهما النظرية القيمية، والنظريـة العلمية، من حيث فكرة الموضوعية التى تتمتع بهـا القضايا العلمية، التى من الممكن إثبات الصدق فى قضاياها، بينما مجال القيم ينطوى على العواطف أو بالأحرى الذاتية.

يؤكد رسل ما سبق عرضه بمثال مهم جاء على لسانه فى «الدين والعلم»، وهى عند مقارنته بين فلسـفة كل من «بنتـام»Bentham و«نيتشـه» Nietzsche انتهى فيلسـوفنا إلى أننا نواجه اختلافـا على درجة عاليـة من الأهمية العملية، حيـث أن «بنتام» كان يرى - كما يقول رسـل - أن اللذة التى يشـعر بها شـخص لها نفس الأهمية الأخلاقية للذة التى يشـعر بها شخص آخر بشرط أن يكون مقدار اللذة فى الحالتين متسـاويًا. وبناءً عليـه دافع «بنتام» عن الديمقراطية. بينـما يقف «نيتشـه» على النقيض من «بنتـام» حيث يرى الأول أن الإنسـان الأعلى فقط هو الذى نسـتطيع اعتباره مهمًا فى حد ذاته، وأن السواد الأعظم من الناس مجرد أدوات يستخدمها الإنسـان الأعلى لتحقيق سـعادته، فكانت نظرة «نيتشـه» إلى البشر العاديين كنظرة كثير من الناس إلى الحيوانات أو القطيع، فكان يرى أن هناك ما يبرر استغلالهم ليس لمصلحتهم، ولكن لمصلحة السوبرمان[1]. وبالتالى ينتهى موقف «نيتشه» إلى تدعيم مفهوم «الأرستقراطية».

من خلال الفكرة والنقيض أى «بنتام» و«نيتشه»، يرى رسل أنه ليس ثمة وسيلة علمية أو فكريـة يتمكن بها طرف مـن اقناع الطرف الآخر بصحة ما يذهب إليه، فلا شـك كما يقول رسـل أن هناك طرقًا يمكن استخدامها لتغيير آراء وأفكار الناس حول هذه الموضوعات، ولكن جميع هذه الطرق والوسـائل (فيما يرى رسـل) هى وسـائل انفعالية وعاطفية وليست عقلية أو فكرية[2].

يرى رسـل فى تأكيده على ما سـبق أنه إذا كانت القوة power شر، كما يبدو أنها كذلك، فلنرفضهـا مـن قلوبنا. ففى هذا الرفض تكمن حرية الإنسـان الحقيقية، فى تصميمه على عبادة الإله الذى خلقه فى ضميره حبًا للخير، وفى احترام السماء التى تلهمنا بالبصيرة فى أفضل أوقاتنا فى الفعـل والرغبة، فى أننا لا يجب أن نستسـلم دائمًا لطغيـان القوى الخارجية، ولكن فى التفكير وفى الإلهامـات نحـن أحرار من الكوكـب الصغير الذى تزحف عليه أجسـادنا بعجز، أحرار

(1) المصدر السابق: ص230.

(2) المصدر السابق: ص ص231-230.

حتى ونحن لا نزال أحياءً بعيدًا عن قبضة الموت. فلنتعلم إذن أن قوة اليقين هى التى تمكننا من الحياة باستمرار وفق رؤيتنا للخير، ولننزل فى أفعالنا إلى عالم الحقيقة بوضع تلك الرؤية دائمًا نُصبَ أعيننا[1].

لقد رأى رسل أنه يجب علينا أن نقول أوقفوا كراهية بعضنا البعض، تعلموا التعاون، هذا ما أود أن آراه، هذا ما أقبله[2]. «ففى كل الأمور، من الأفضل تمجيد كرامة الإنسان بتحريره ما أمكن من طغيان القوة اللاإنسانية»[3].

من خلال ما سبق يستنتج المؤلف أن مفهوم الخير والسيء أو الصواب والخطأ فى نظرية رسل الانفعالية، بل حتى الخير الأعلى الموجود فى الطبيعة الإنسانية، ما هو إلا انعكاسات لمشاعرنا وعواطفنا، أى انفعالاتنا الخاصة فى الحكم على قيمية الأشياء، فقيمة الشيء تكون من ما نضفيه على الشيء من خلال رغباتنا الذاتية وانفعالاتنا الخاصة، دون أن نكون فى احتياج مبرر أو دليل للبرهنة على صحة وخطأ أقوالنا.

ولذلك كانت النتيجة التى وصل إليها رسل فى نظريته الانفعالية هى «أن اختلاف الرأى بصدد القيم هو أساسًا اختلاف فى الأذواق، وليس بالنسبة لأى صدق موضوعى»[4].

يؤكد رسل أن التساؤلات المرتبطة بالقيم، أى المرتبطة بما هو خير أو سيء فى حد ذاته بغض النظر عن ما يترتب عليه من نتائج، هى تساؤلات تقع خارج نطاق العلم كما يؤكد على ذلك بشدة المدافعون عن الدين. وأظن أنهم على حق فى هذا الشأن، ولكنى استخلص نتيجة أخرى مترتبة على ذلك مفادها أن القيم تقع تمامًا خارج نطاق المعرفة. ومعنى هذا أننا عندما نؤكد أن هذا الشيء أو ذاك له قيمة، فإننا نعبر عن عواطفنا الذاتية ولا نعبر عن واقعة Fact تتسم بالسلامة أو الصدق حتى إن كانت مشاعرنا وعواطفنا الشخصية مختلفة[5].

(1) برتراند رسل: عبادة الإنسان الحر، ترجمة: محمد قدرى عماره، مراجعة: إلهامى جلال عماره، المركز القومى للترجمة، القاهرة، العدد 893، الطبعة الثانية،2009م، ص13.
(2) برتراند رسل: أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص137.
(3) برتراند رسل: عبادة الإنسان الحر، مصدر سابق، ص12.
(4) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص 681.
(5) برتراند رسل: الدين والعلم، مصدر سابق، ص231.

من هنا يمكن القول أن الموقف الانفعالى الذى تبناه رسل فى نظريته الأخلاقية، لا يبعد كثيرا عـن الموقف الذى تبنته الوضعيـة المنطقية المعاصرة، متمثلة هنا فى موقف «ألفريد جولس آير» وما عرضه فى كتابه «اللغة والصدق والمنطق»، وإن كان تعبير «آير» هنا فى النظرية الانفعالية الأخلاقية ما هو إلا نتيجة حتمية لموقفه فى دحض الميتافيزيقا، لأنه يراها فارغة من كل معنى، وذلك لأنها تقرر قضايا لا تحتمل الصدق أو الكذب، ولا تقبل التحقق على أى نحو[1].

لقد أسـس «آيـر» نظريته الميتا أخلاقية على أسـاس تجريبى مستمد من مبادىء الوضعية المنطقيـة التى كان على وفـاق تام معها. فقد قام «آير» بفحص العبارات الأخلاقية، فصنفها فى أربع فئات، كالتالى:

الأولى: أن جميع القضايا propositions ما هى إلا تعريفات definitions للحدود الأخلاقية أو انتقادات لهذه التعريفات.

الثانية: أن هذه القضايا عبارة عن وصف Describing لظاهرة phenomena الخبرة الخلقية وأسبابها.

الثالثة: أن هذه القضايا ما هى إلا مواعظ exhortations تحض على الفضيلة الخلقية.

الرابعـة: أن هـذه القضايا ما هى إلا أحـكام أخلاقية بالفعل، وبالتـالى هى تعبيرات عن انفعال خلقى أو شعور ذاتى، ومن ثم فهى خلو من المعنى المعرفى[2]. وهذا تناقض واضح.

ومن خلال الأربع فئات السابقة فإن «آير» يعد العبارات الداخلة فى الفئتين الأولى والثانية معرفيـة، فهو هنا يقبلها كجزء من العلم أو التحليل المنطقـى، أما العبارات الداخلة فى الفئتين الثالثة والرابعة فإنها عبارات معيارية، أى لا قيمة صدق لها لأنها مجرد تعبيرات عن الانفعالات والمشـاعر، وهنا قد أحس «آير» أنه قد بالغ كثيرًا حين سلب العبارات المعيارية قيمة صدقها لمجرد أن معناها غير قابل للتحقق منه بالملاحظة التجريبية، فأشـار إلى أن للعبارات المعيارية قيمة مهمة، باعتبارها وسائل للإلهام الخلقى[3].

(1) زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، القاهرة، 1971م، ص148.

(2) A. J. Ayer: Language, Truth and Logic, Victor Gollancz LTD, London, 1938, p.150.

(3) سحبان محمود الحمدان خليفات: المدرسة اللغوية فى الأخلاق، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1973م، ص42.

ولقد قرر «الفريد آير» عند تحليله للقضية الأخلاقية المؤلفة من موضوع ومحمول، «أن وجود رمز أخلاقي ethical symbol في قضية لا يضيف شيئًا إلى مضمونها الواقعي»[1]. ومن ثم، «فإنني عندما أقول لشخص ما «لقد أخطأت حين سرقت تلك النقود» «You acted wrongly in stealing that money» لا أقرر أي شيء أكثر من قولي ببساطة «لقد سرقت النقود» فأنا حين قررت أن ذلك الفعل خطأ، فأنا لم أقدم أي شيءٍ آخر لهذه العبارة، و إنني بكل بساطة أبدي فيها استهجاني الخلقي my moral disapproval وهو أشبه بقولي «لقد سرقت النقود» بلهجة معينة، أو كما لو كتبتها مع إضافة بعض علامات التعجب. ولا تضيف اللهجة، أو علامات التعجب شيئًا إلى المعنى الدقيق للعبارة، و إنما يبين فقط أن هذا التعبير مصحوبٌ بمشاعر خاصة عند المتكلم»[2]. وحين يختلف فرد آخر معي على خطأ سرقة النقود، فإن معنى الخلاف هو أن لدى كل منا إزاء الحدث مشاعر مختلفة، لكن هذا الاختلاف لا يصل إلى حد التناقض أبدا[3].

ولقد سبق رسل «آير» في الوصول إلى نفس النتيجة على حد تعبير «كوبلستون» عن فيلسوفنا في «تاريخ الفلسفة» بقوله «إن أحكام القيمة عند رسل يُعبر

عنها بصيغة التمني، فالقول «س خير» معناه «ليت كل شخص يرغب في س» والقول «ص شر» معناه القول «ليت كل شخص يشعر بنفور من ص». و إذا أمعنا النظر في هذا التحليل، يتضح أن القول «القسوة شر» عندما يؤخذ على أنه يعني «ليت أن كل شخص لديه نفور من القسوة» لا يمكن وصفه بأنه صادق أو كاذب أكثر من القول «ليت أن كل شخص يقدر النبيذ الجيد»[4].

من هنا يمكن القول أن القضايا الأخلاقية أشباه مفاهيم، ومحمولاتها ليست محمولات حقيقية، أي أنها لا تشير إلى كيفيات حسية يمكن ملاحظتها، إنما تعبر فقط عن مشاعرنا[5]، بل رأى «آير»: «أن الألفاظ الأخلاقية ethical terms لا تعمل على التعبير عن المشاعر فحسب، بل أنها مجهزة لكي تثير في النفس المشاعر، وبالتالي تحث على الفعل»[6].

---

(1) A. J. Ayer: Language, Truth and Logic, Op. cit, p.158.

(2) Ibid: p.158.

(3) سحبان محمود الحمدان خليفات: المدرسة اللغوية في الأخلاق، مرجع سابق، ص46.

(4) فردريك كوبلستون: تاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص ص682-681.

(5) سحبان محمود الحمدان خليفات: المدرسة اللغوية في الأخلاق، مرجع سابق، ص46.

(6) A. J. Ayer: Language, Truth and Logic, Op. cit, p.160.

بناءً على ما تقدم من تحليلات ميتا أخلاقية للنظرية الانفعالية، سواءً عند الفيلسوف محل الدراسة، أو عند أبرز ممثلي الوضعية المنطقية «آير» يجد الباحث أن هذه التحليلات جميعها تدور في مسار واحد، ألا وهو المشاعر، أو العواطف. فالمعنى هنا واحد، حتى أصبحت المشاعر هنا موضوعًا جوهريًا في بناء النظرية الانفعالية، لدرجة يمكن القول فيها أن النظرية الانفعالية نظرية في النقد الأخلاقي، أي أنها بالفعل نظرية لغوية في الأصل، قبل كونها أخلاقية، وبالتالي أصبحت نظرية ميتا أخلاقية أيضًا مبنية على أسس ومفاهيم سيكولوجية، في استحسان الفعل أو استهجانه، ولذلك فإنه من الصواب أن نطلق على النظرية الانفعالية عند رسل مسمى النظرية السيكولوجية في الأخلاق، أو بالأحرى النظرية اللغوية في الميتا أخلاق، وهذه إن دلت على شيء هنا، فإنها تعبر عن مضمون رؤية الباحث في تحليله للانفعالات الأخلاقية من خلال «الدين والعلم» أو «مجمل الفلسفة» لبرتراند رسل، وكذلك لما جاء في «اللغة والصدق والمنطق» لـ«آير». وخير تعبير هنا هو إطلاق اسم «مدرسة حكم القيمة» أو مدرسة الحكم الانفعالي As the Value Judgment or Motive Judgment School على النظرية الانفعالية في الأخلاق، حيث أنهم يعتقدون بأن وضع القيمة يتحدد بواسطة تحليل الجمل التي تحتوى مصطلحات القيمة[1].

وفي هذا المقام لابد من ذكر رؤية الدكتور: زكي نجيب محمود، حيث يراها الباحث معبرة عن موقف رسل والانفعاليين اللغويين، في قوله «تستخدم اللغة بطريقتين أساسيتين: أولاهما تجرى مع منطق العقل، وهي التي يجوز أن يقال في قضاياها أنها صادقة أو كاذبة استنادًا إلى مقاييس موضوعية مشتركة بين الناس، والأخرى تجيء تعبيرًا ذاتيًا عما يخالج المتكلم من مشاعر، على اختلاف تلك المشاعر، وها هنا لا منطق ولا قضايا تقاس بمقاييس موضوعية لتفرقة بين حق وباطل، وإنما هو المتكلم وحده الذي يؤمن بصدق تعبيره عن شعوره، ولا يغير الموقف أن يوافقه الأخرون على دعواه أو لا يوافقونه»[2].

ومجمل القول هنا أن هناك نوعين من العبارات الأخلاقية عبر عنهما الفيلسوف محل الدراسة في كتابه المعنون بـ«الدين والعلم»، وهما:

(1) رمضان الصباغ: النظرية الجمالية السياقية عند ستيفن بيبر، مرجع سابق، ص18.
(2) زكي نجيب محمود: قصة عقل، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1993م، ص175.

(1) أن العبارات الأخلاقية ليست عبارات دلالية Indicative أو معبرة عن واقعة fact-stating على الرغم من كونها تبدو كذلك.

(2) أن هذه العبارات الأخلاقية لنظرية رسل الانفعالية معبرة عن التمنى optative أو الرغبة desire[1].

ثانيا: انفصال العلم عن القيم

إلى أى حد يمكن أن يقال أن هناك علاقةً بين العلم والأخلاق؟؟ و إذا كانت هناك علاقةٌ فهل هى علاقةُ انفصالٍ أم ترابط؟؟ وما معنى قولنا بأن المتعةَ خيرٌ والألمَ شرٌ؟؟ و إذا قلنا ذلك فهل نحن نقرر شيئًا، أم نحن نعبر عن عاطفة يمكن التعبير عنها بصورة أكثر صوابًا لو أنها وضعت فى قالب لغوى آخر؟؟ وهل يمكن أن تكون هذه التعبيرات جزءًا من لغة الأخلاق فى أبسط صورها؟؟ و إذا كان الأمر كذلك، فهل العلاقة بينها و بين رغبات وعواطف و إحساسات من يستعمل هذه التعبيرات علاقة أساسية، أم هى تشير إلى الرغبات والعواطف والإحساسات العامة للجنس البشرى»[2]؟؟

كل هذه التساؤلات تستحق أن يكون لكل تساؤل منها بحثٌ منفصلٌ داخل إطار فلسفة الأخلاق، ولكن يمكن أن نحاول الإجابة عنها فى السطور القادمة، و إن كانت الإجابات المقدمة قد تخلو من العمق واليقين، ولذلك سوف أقوم بدايةً بتحليل رؤية رسل فى العلاقات القائمة بين كل من الأخلاق والعلم (المعرفة) من وجهة نظر تحليلية.

فى البدء يريد المؤلف فى بحثه هنا أن يوضح حقيقة مهمة، وذلك قبل شروعه فى تحليل انفصال العلم عن الأخلاق فى نظرية رسل الانفعالية وهى أن رسل يعد بمثابة الركيزة الأساسية الصلبة فى بناء الفلسفة التحليلية المعاصرة، ولا يخفى على الباحث أمور منها: أن رسل فى المقام الأول هو فيلسوف المنطق الرياضى فى القرن العشرين بلا منازع، كما أنه فيلسوف النزعة العلمية فى نظرية المعرفة، أكثر من كونه فيلسوفًا للأخلاق ونظرية القيمة بوجه عام.

(1) Dr. Ramendra: The Ethical Philosophy of Bertrand Russell, at. http://bihar.humanists.net/ethicsrussell.htm (16/4/2010)

(2) برتراند رسل: المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة، مصدر سابق، ص97.